التجارة في الفكر الإسلامي

أبو حنيفة أنموذجاً 80-151هـ/ 699-768م

Trade in Islamic Thought

Abu Hanifa as a Model

الباحث: فراس عبد الرحمن، محاضر في جامعة حمص، مشرف تربوي في مديرية تربية حماة

ايميل: abo-emad323@hotmil.com

Researcher: Firas Abdul Rahman

ملخص

خُصص هذا البحث للنظر في أهمية التجارة في الاقتصاد الإسلامي بشكل عام وفي فكر أبي حنيفة بشكل خاص، فتم التوسع في الفكر الاقتصادي والمعاملات التجارية عند أبي حنيفة وأخلاقه التجارية، فهو صاحب المذهب الحنفي الشهير الذي انتشر في المدن دون الأرياف، وذلك لِما اشتهرت به المدن من العمل التجاري فاعتمدت المذهب الأيسر لمعاملاتها التجارية، أما حياته العلمية وإنتاجه الفقهي فقد بُحث فقط بالقدر الذي يفيد أو يتصل في البحث، كما تطرَّق البحث لأهم آرائه السياسية.

كلمات مفتاحية: التجارة، الاقتصاد الإسلامي، أبو حنيفة، الأخلاق.

ABSTRACT

This research is devoted to broadly examine economic thought and the merchant and ،commercial transactions according to Abu Hanifa which spread in cities but not in ،founder of the famous Hanafi school adopted the ، being known for commercial acts، as cities،countrysides easiest school of commercial transactions. The research has not delved except ،deep into Abu Hanifa's academic life and jurisprudential product for what is useful for or relevant to the research. The research has also touched upon his most important political viewpoints.

مقدمـــــــــة

بسم الله وأفضل الصلاة والسلام على رسول الله.

لأبي حنيفة أهمية خاصة في الفكر التجاري الاقتصادي الإسلامي، ذلك لما له من إسهامات هامة في ذلك، وكونه صاحب مدرسة فقهية لا تزال قائمة حتى الآن؛ أي على مدى ثلاث عشر قرناً، ومن هذا الباب يُفهم مدى رصانة فكره وحذاقته ورؤيته الواسعة المتقدمة على عصره. وعزز ذلك أن أبا حنيفة كان قد دخل في علم الكلام والجدل في مسائل الاعتقاد وتعمّق بها ثم عدل عنها إلى الفقه، وذلك جعله يكتسب خبرة كبيرة في المجادلة والمناظرة بما يخدم علم الفقه، فساعده ذلك على أن يُرسي فقهه وأحكامه على حجج وبراهين واضحة يدحض بها آراء وفقه من خالفه، فصدق به قول الإمام مالك عنه: " لو كَلَّمك في هذه السارِية أن يجعلها ذهباً لقام بِحُجَّته"[1].

اتصف أبو حنيفة بالعطاء والسخاء واتضح ذلك جلياً في معاملاته مع الناس، وزاد بأن ألبس العطاء ثوباً جديداً هو ثوب البيع والشراء، فسما بأخلاقه وبمهنة التجارة إلى العلاء، وألبس التجارة حلة الصفاء والاخاء، وكأن حاله يقول للفقراء: نحن في المال والربح قُسماء.

[1] ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (597ه): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية -بيروت، ط1، 1992م ، ج8، ص131. ابن خلكان الإربلي، شمس الدين أحمد بن محمد (681ه): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ج5، ص409.

لا يخفى على أحد ما لهذه السياسة من دور وفضل في بناء مجتمع مترابط متماسك مُتحابب، تختفي منه الأمراض الاجتماعية وتتعافى المجتمعات، فتنمو وتزدهر.

هنا لا بدَّ من التنويه إلى أن أبو حنيفة بُحث من قبل عدة باحثين، قديماً وحديثاً، وأُلِّفت في حقه مؤلفات عدة، وذلك لِما له من وقع خاص في المجتمع الإسلامي حتى الوقت الحاضر، وجميع هذه الدراسات تَغَنَّت به وعَنوَنَت بما يوحي إلى فضله ودوره ومكانته ومناقبه، وبَحْثُنا هنا لا ينفرد عنها بشيء إلا أنه خُصص للفكر والمعاملات التجارية عند أبي حنيفة، وهذا ما افتقرت إليه تلك المصادر والمؤلفات، فأتى البحث هنا بمادة فريدة متميزة عما سواه، ولن يُفصِّل البحث كثيراً في الدراسات السابقة التي اعتنت بأبي حنيفة أو التي وُضِعت في حقه، لأنه سبق وفصَّلها وعددها عبد الرحيم موسى المحيميد في مقدمة تحقيقه لكتاب الخيرات الحسان[2].

الخوض في حياة أبي حنيفة وآرائه وإنتاجه العلمي الفقهي ليس بالأمر السهل، ويحتاج إلى مزيد من التعب والجهد وربما احتاج إلى كتاب أو كتب عدة كي يوفيه حقه، وهنا لا بدَّ من الذكر أنه ظهرت مؤلفات كبيرة عظيمة ومفيدة جداً في حق أبي حنيفة أوصلته بها إلى مرتبة الفقيه المجتهد، وغالت بعضها لدرجة قاربته بها إلى منزلة الأنبياء والرسل، وفي المقابل طَعن به البعض وأفرطوا بذلك، وبين مدح المادحين وقدح القادحين يكمن دور الباحث وحذاقته في تقصي الحقيقة وإظهارها للعلن، وذلك لا يتم إلا بعد جهدٍ جهيد، ومن هذا الباب وقع اختيار البحث على مسألة محددة ودقيقة، وهي حياة أبي حنيفة العامة وعلاقاته التجارية مع تعاملاته الاقتصادية في السوق التجاري، فتوسع البحث في عمله التجاري وفكره الاقتصادي بشكل عام، دون التعمُق في حياته العلمية وإنتاجه الفقهي؛ باستثناء ما يفيد أو يتصل بالبحث، كما تطرَّق البحث لآرائه السياسية، متبعاً المنهج البحثي الاستقرائي والاستنتاجي.

تأتي **أهمية البحث** من:

- أهمية عمليات البيوع والشراء المتكررة يومياً في حياتنا الخاصة –ولو على مستوى حاجيات الأسرة–.
- أهمية العمل التجاري في الماضي والحاضر، فهو الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها اقتصاد الدول، ومن ثم تطور الدول العام ولحاقها بركب الحضارة والتقدم التكنولوجي.

[2] ابن حَجَر الهيتمي الشافعي، أحمد بن محمد، (ت 974هـ): الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تح: عبد الكريم المحيميد، دار الهدى والرشاد، دمشق، 2007م ط1، ص7-10.

- أهمية أراء أبو حنيفة التجارية الاقتصادية والتي ترنو للتنمية الاقتصادية وحفظ المال، وقد جرّب ذلك عملياً فاكتسب خبرة ومران، لذلك يُعتدُّ به في هذا المجال.

كما تتعزز أهمية البحث بأهمية **أهدافه**، ومنها:

- نبش تراث الأمة العربية – الإسلامية وتقدير الثمين فيها، والاقتداء به.
- إظهار أهمية الفكر الاقتصادي الإسلامي في تطور المجتمعات والدول.
- استنهاض الهمم وإحياء العلاقة بيننا وبين تراثنا الإسلامي وشخصياته العظيمة مع تفهمنا لِتغيُّر الأدوات والوسائل بتغيير العصور والأزمان.
- تبيان عدم اقتصار حياة علماء الدين على العبادة، وإنما كان العمل المعيشي في صميمها (أي لا رهبانية في الإسلام).
- تبيان عدم تعارض العمل مع العلم الشرعي، وأبو حنيفة دليلاً وافياً على ذلك.
- إيضاح وإشهار فكر وسلوك أبي حنيفة التجاري الاقتصادي والاقتداء به من قبل تجار العصر الحالي.

التجارة والإسلام

التجارة والاقتصاد والاحتياج لكسب المال تلك غريزة متأصلة في النفس البشرية، وورد في القرآن الكريم ما يعزز ذلك، بقوله: "المالُ والبَنُونَ زِينةُ الحياةِ الدُّنيا"[3]، إلا أن الإسلام وضع لذلك ضوابط وحدود بحيث لا يكون شهوانياً اعتباطياً غرائزياً، وإنما يجب أن يتم وفق ضوابط وأسس شرعية تنظم عمل الأفراد والجماعات، وتلك الضوابط والحدود تكون أكثر دقة وأهمية عند تحديد أوجه نفقة تلك الأموال، والتي ربما جهلها الكثير، فجميع الناس –حتى العامة– تقوم بعملية البيوع والشراء، وفي أدناها شراء حاجيات المنزل، ولم يترك الإسلام تلك العمليات عشوائية دون ضوابط، وإنما نظَّمها وضبطها بشكل كبير ودقيق.

عند النظر في النصوص الشرعية نجد فيها أحكاماً تضبط النظام الاقتصادي والعلاقات التجارية، فالنبي ﷺ أقرَّ ركنية الرضا في عقد البيع بقوله: "إنما البيع عن تراض"[4]، وقد قال عليه السلام ذلك عندما قدِمَ يهوديٌّ بتَمْرٍ وشعيرٍ وقد أصابَ النَّاسَ جُوعٌ، أي :في وقْتِ مَجاعةٍ وشِدَّةٍ، فسألوه أنْ يُسَعِّرَ لهم بضاعة

[3] سورة الكهف، آية 46.

[4] ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، دار إحياء الكتب العربية، ج2 / ص737.

اليهودي فأبَى، وقال "إنما البيع عن تراض"، أي كي يَصح البيع لا بدَّ من موافقة ورضى الطرفين (البائع والمشتري) على السعر، ولا يجوز إكراه أحدهما على سعر معين، ولم يترك رسول الله ﷺ الباب مفتوحاً للمغالاة في ذلك، وإنما حث الناس على التعاطف والتراحم فيما بينهم، فصَعِد المنبر وحَمِدَ اللهَ، وأثْنى عليه، ثمَّ قال: "لا أَلْفِيَنَّ اللهَ مِن قبْلِ أنْ أُعْطِيَ أحداً مِن مالِ أحدٍ مِن غيرِ طِيبِ نفْسٍ؛ إنَّما البيعُ عن تراضٍ، ولكنَّ في بُيوعِكم خِصالًا، أذْكُرُها لكم: لا تَضاغَنُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَحاسَدوا، ولا يَسُومُ الرَّجلُ على سَوْمِ أخيه، ولا يبيعَنَّ حاضرٌ لِبادٍ، والبيعُ عن تراضٍ، وكونوا عِبادَ اللهِ إخوانًا"[5].

في هذا الحديث قواعد تجارية عظيمة من طراز دقيق رفيع، أولها:

- كل شخص حرٌ بماله –بما يرضي الله ﷻ– وهنا نتذكر حديث رسول الله ﷺ: "لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلا بطيب نَفسه"[6].
- لا يحق لأحد أن يعطي أحداً مما لا يملك.
- ركنية الرضى أثناء عملية البيع، وغيرها من العمليات الحياتية، وحديث "طيب النفس" المتقدم يُعزز ذلك.
- لا يجوز اجبار الناس على بيع بضائعهم وسِلَعهم بغير ما تطيب به أنفسهم.
- الابتعاد عن الضغينة .
- الابتعاد عن التناجش، والنجش: هو أن يرى الرجل السلعة تباع، فيزيد في ثمنها، وهو لا يريد شراءها، بل يريد ترغيب السوام فيها ليزيدوا في ثمنها، ويبتغي من وراء ذلك منفعة مادية كان قد اتفق عليها مع صاحب السلعة.[7]
- لا تقحم نفسك في تجارة بين اثنين، فتزيد في السعر لتشتري السلعة لنفسك.[8]

---

[5] ابن حِبّان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، الدارمي البُستي (ت 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب ابن بلبان الفارسي، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1988م، ج11، ص341.

[6] الدَّارقطنِي: علي بن عمر بن أحمد البغدادي (ت 385هـ): سنن الدارقطني، تح: شعيب الأرنؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، 2004م، ج3، ص424.

[7] للمزيد راجع البخاري ، محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، باب ما يكره في التناجش، حديث رقم 2142، تح: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج9، ص24 .

[8] للمزيد راجع مسلم بن الحجاج، (ت261هـ): صحيح مسلم، في البيوع : باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، حديث رقم 1516.

- أن البائع والتاجر حراً في بضاعته إن رغب في رفع سعرها، وذلك ليس حراماً عليه، فلا يجوز الطعن به، ولكن ذلك مع تجنب الكذب في البيع والإيهام خلاف الحقيقة، وتجنب الغَبْنُ في السعر للغريب عن البضاعة أو للذي لا يعلم حقيقتها.
- التآخي والتعاطف.

من هذا الحديث السالف ومن دراسة سريعة في التسعير وشرعيته نَخلُص إلى أن جميع المذاهب الإسلامية حرَّمت على الحاكم التسعير، ومنعته من ذلك ضمن شروط معينة، فلا يُلزم البائع بربح معين؛ ويُستثنى من ذلك بعض الأوقات والأزمان والأحوال والأصناف، إذ يمكن ذلك.[9]

ومن القواعد الأساسية للتجارة في الإسلام تجنب الربا، ومنها أن بلالاً جاء يوماً النبي عليه السلام بتمر برني، فقال له النبي عليه السلام من أين هذا، قال بلال: كان عندنا تمر رديءٌ فبعت منه صاعين بصاع، لنُطعم النبي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك "أوّه أوّه، عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثمّ اشتره"10.

وها هو الصحابي الجليل عمر بن الخطاب يشترط العلم بأحكام السوق لمن أراد المتاجرة فيه فقال: "مَن لم يَتفقَّه في الدين، فلا يَتَّجِرْ في سوقنا"[11]، ويؤكد ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بقوله: "من اتَجَر قبل أن يَتَفقه في الدين ارتطم في الربا، ثم ارتطم، ثم ارتطم"12، وتحت هذين الحديثين تنطوي عدة قواعد وأحكام إسلامية اقتصادية وُضِعت في عصر الرسول والعصر الراشدي، ثم اشتدت الحاجة إلى الدراسات الفقهية في المجال الاقتصادي بعد الفتوحات الإسلامية وما استجد عَقِبها من مسائل فقهية، فتنامى الفكر الاقتصادي والتجاري الإسلامي .

---

[9] راجع النووي، محي الدين يحيى بن شرف (ت676ه): روضة الطالبين وعمدة المفتين، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت -دمشق -عمان، ط3، 1991م، ج3، ص413. أبو الوليد الباجي القرطبي الأندلسي، سليمان بن خلف (474ه): المنقى شرح الموطأ، مطبعة السعادة- مصر، ط1، 1332ه، ج5، ص18.

[10] البخاري، صحيح البخاري، ج101/3.

[11] القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد (671ه): الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط2، 1964م، ج5، ص28.

[12] الصلّابي، علي محمد محمد: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، مكتبة الصحابة- الشارقة، 2004م، ج1، ص359.

النشاط التجاري في الكوفة في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي

تميزت الكوفة بموقعها الاستراتيجي والتجاري على نهر الفرات، وقد شُيدت المدينة في عهد عمر بن الخطاب عام 17هـ/ 638م لتكون دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن[13]، ومنذ تأسيسها انتقلت إليها أسواق الصيرفة وأسواق الحرير والمنسوجات ثم الرقيق والحدادة وغيرها، وزاد في تطورها تجارياً بأن جُعلت – منذ البداية– مخزناً كبيراً لجميع غنائم الحروب، وبمدة وجيزة أصبحت الكوفة أهم مراكز التبادل التجاري في العراق وغدت أهم محطة للقوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية، ولمعت بها صناعة الخُز والديباج (المنسوجات الفاخرة) التي صدّرتها إلى جهات مختلفة.

منذ البداية حظيت الكوفة باهتمام ولاة الأمويين فنظموا أسواقها وصنفوها حسب السلع فتخصص كل سوق بسلعة معينة، وبنوا الحوانيت وسقفوها، وأخضعوها لرقابة صارمة من قبل المحتسب لضمان عدالة المعاملات التجارية[14]. وعلى قدم المساوة مع الحركة الاقتصادية والتجارية في الكوفة أيضاً نشطت بها الحركة الفكرية وما لبثت أن أصبحت مركزاً ثقافياً وعلمياً وغدت ملتقى علماء اللغة والنحو والفقه، في هذه البيئة ولد ونشأ أبي حنيفة.

أبو حنيفة 80–151هـ/ 699–768م

تسميته وكنيته:

هو النعمان بن ثابت، ويُكنى بأبي حنيفة، وحنيفةَ هي مفرد حنيف، وهو الناسكُ المسلم، والحَنَف هو الميلُ، وهنا تضاد وتعارض، نوضحه بما يلي:

الحنيفية: هي تسمية لُقِّب بها النبي إبراهيم عليه السلام، وهو في حقه لقبُ مدح باتفاق، وذلك أن الناس عند ظهور شريعة إبراهيم كانوا في ظلالة عمياء، فجاءت شريعته مائلةً عنهم، فَلُقِّب بالحنيف، ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة.

بعض الروايات التاريخية تقول بأن كنيته تعود لملازمته للدَّواةِ المسمَّاة حنيفةً بلُغَة العراق.

13 الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: مجلة البحوث الإسلامية، جزء الأمكنة، ص 302.

14 البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م، ص70-72. الصلابي، علي محمد: معاوية بن أبي سفيان، دار الأندلس الجديدة، مصر، ط1، 1429هـ/2008م، ص352-354.

ويَخلُص البحث إلى أن أضعف الروايات تلك التي تقول بأنه كُنِّي بابنته، إذ لا يرد في المصادر بأن له ولد ذكر أو أُنثى سوى ابنه حمَّاد.[15]

نسبه وأصله العربي

يتفق المؤرخون على مكان وتاريخ ولادة ووفاة أبو حنيفة، ويفترقون ويتناقضون في تحديد نسبه وأصله العرقي، ومرد ذلك أنه في تلك المرحلة (العصر الأموي والعباسي) لم يكن التمييز العرقي واضحاً والجميع ضمن بوتقة الحضارة الإسلامية التي كانت لا تفرق بين عربي وعجمي، وتلك هي ثقافة تلك المرحلة.

ولد أبو حنيفة في الكوفة سنة 80هـ/ 699م.

وعن نسبه واسم والده وجده تختلف الروايات قليلاً، وأفضل روايتين تردان عن حفيديه، وينقلهما الخطيب البغدادي:

أولاها ترد عن عمر بن حَمّاد بن النُّعمان، ومفادها أن النعمان هو أبو حنيفة بن ثابت بن زَوطى/ زُوطى (بضمٍّ أو فتح).

والثانية ترد عن حفيده إسماعيل بن حَمّاد، وفيها أنه النُّعمان بن ثابت بن النعمان بن المَرْزُبَان.[16]

والتوفيق بين الروايتين أنه من الممكن أن النعمان –جد أبو حنيفة– لُقِّب بزُوْطَى، وعلى هذا الأساس ورد اختلاف في الروايتين بين الحفيدين.

تذكر بعض المصادر أنه من أصل فارسي، والأكثر دقة وترجيحاً هي تلك التي تجعل أصله عربي[17]، وتَأكد ذلك في عدد من الدراسات الأكاديمية الحديثة، وأُثبتت عروبته بعدة دلائل لا مجال للتوسع والتفصيل بها في هذا البحث، ونذكر أهم تلك الدراسات دراسة مصطفى جواد، ودراسة رشيد الخيون، وخصص ناجي معروف (وهو من علماء وأدباء العراق) بحثاً مستقلاً لإثبات عروبة أبو حنيفة وتأكيد أصله العربي، وذلك بسند تأريخي يدحض كل ما قيل عنه بأنه غير عربي.

---

[15] الخيرات الحسان: ص60.

[16] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد وذيوله، الطبعة العلمية ، 13/ 325-327. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز، (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م، ج6، ص395. الخيرات الحسان: ص57

[17] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الرسالة، بيروت، 1965. تاريخ بغداد وذيوله، 13/ 327. الطبري، محمد بن جرير، (310هـ): تاريخ الطبري، دار التراث- بيروت، ط2، 1387هـ، ج2، ص465. سير أعلام النبلاء، دار الرسالة: 6/ 395.

العباسي، أحمد: الإمام الأعظم، بغداد، 1956، ص 431.

وخلاصة تلك الأبحاث أن والده ثابت هو ابن المَرْزُبان، من بني يحيى بن زيد بن أسد، من عرب الأزد الذين هاجروا من اليمن واستقروا في العراق بعد انهيار سد مأرب وسيل العرم –كما هو مشهور– فأصبحوا جزء من نبط العراق وسكنوا الأنبار –غرب العراق–.[18]

وعن الروايات التي تقول بأن والده من أهل الأنبار، ثم انتقل لنَسَا، وبها ولد أبو حنيفة وترعرع، وأخرى تذكر أنه من أهل ترمُذ/ ترمِذ (بالضم أو بالكسر)،[19] يَخلُص البحث إلى أنه ليس بالضرورة أنها روايات متناقضة، فلربما تنَقَّلَ ثابت بين تلك المدن، فنقَل كل كاتب عنه ما شهده أو سمعه.

نشأته وأسرته:

المصادر التاريخية تبسط الحديث عن ثقافة أبو حنيفة وعلمه وفقهه؛ إلا أنها تصمت وتضن عند الحديث عن نشأته وأسرته، وذلك ليس أمراً فريداً أو غريباً، فكثير من العلماء أو القادة نشأوا حياة عادية غير لافتة، والسبب هو أنهم أتوا من أُسر أو وسط اجتماعي غير لامع.

عند البحث في المصادر المتوفرة لا يتوصل الباحث إلى معلومات كثيفة أو دقيقة عن حياة وبداية نشأة أبو حنيفة وما كان يمارسه أو يتولاه من أعمال وأشغال، وتجمع تلك المصادر على أنه مارس التجارة في بداية نشأته وبعد سن العشرين تحول إلى طلب العلم والتعمق به.

ولد أبو حنيفة في الكوفة لأسرة مسلمة سنة 80هـ/ 699م، أي في العصر الأموي، وبالتحديد في خلافة عبد الملك بن مروان.20

تميز أبو حنيفة بالصلاح وحُسن السيرة، ولم يقف البحث على أخ أو أخت له، فلربما ولد وحيداً لوالديه، وكذلك بالنسبة لأولاده لم يعثر البحث سوى على ابن واحد له هو ابنه حمّاد.

وعن مهنته وعمله في الصغر؛ فقد كان أباه ثابت يمتهن التجارة، وبشكل خاص بيع ثياب الخزِّ في دكانته المعروفة في الكوفة في دار عمرو بن حريث، يبدو أن ثابت كان منشغلاً بتلك المهنة، فجعل ابنه النعمان يعمل معه بها، فامتهنها النعمان كغيره من الأبناء الذين يرثون مهنة الوالد ويحيونها بالخير. 21

[18] معروف، ناجي: عروبة أبو حنيفة، مطبعة العاني، العراق، ط1، 1935م، ص15. معروف، ناجي : عروبة أبو حنيفة، مجلة كلية الآداب – القاهرة، 16 مايو 1977. الخيون، رشيد: المذاهب والأديان، ص67. الأزدي السلماسي، يحيى بن إبراهيم: منازل الأئمة الأربعة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 2002م، ص163.

[19] سير أعلام النبلاء، دار الرسالة: 6/ 395. الخيرات الحسان، ص 57.

[20] سير أعلام النبلاء، دار الرسالة: 6/ 395. الخيرات الحسان: 59، عن تاريخ بغداد 13/ 330.

[21] تاريخ بغداد وذيوله : 3/ 326.أبو زهرة، محمد: أبو حنيفة (حياته وعصره وآراؤه وفقهه)، دار الفكر العربي، 21.

والخزُّ: ثياب تنسج من صوف وإبريسم، وهي مباحة قد لبسها الصحابة والتابعون.22

عندما بلغ أبو حنيفة السادسة عشر من عمره خرج مع أبيه لأداء فريضة الحج وزيارة النبي ﷺ، وقبل ذلك كان أباه ثابت قد التقى وهو صغيراً بعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وتضيف المصادر أن جده المَرْزُبَانِ/ زوطي أهدى آنذاك لعلي بن أبي طالب مقداراً من الفَالُوْذَج –وهو نوع من الحلوى الفاخرة آنذاك– وكان ذلك في عيد النَّيْرُوز. ويؤخذ من تلك الهدية والحلوى أن أسرة أبو حنيفة كانت في حالة اقتصادية جيدة ميسورة، مكنتها أن تبعث هدية لخليفة المسلمين، وفي اللقاء ذاته دعا علي رضي الله عنه لثابت ولذريته بالبركة.23

ويُستدل من ذلك النشأة الإسلامية الخالصة لأسرة أبي حنيفة، إذ أنه ليس من الممكن لتلك العلاقة أن تكون بين والده وجده مع الخليفة علي دون أن يكونا مسلمين، وذلك يفند كل الدعوات والافتراءات على تلك الأسرة.

تحوله مع التجارة إلى العلم

نشأ أبو حنيفة على التجارة التي ورثها عن والده ثابت –تجارة الخَز–، ويبدو أن ثابت كان منشغلاً في تجارته، واستخدم ابنه النعمان بها، ومن هنا لم يجد النعمان من يُرشده إلى الأخذ عمن أدركه من الصحابة، فانشغل مع أبيه في السوق، وارتاده بشكل دائم بمحلته المعروفة في الكوفة.

أبدى أبو حنيفة في عمله مهارة وذكاء منقطع النظير، بالإضافة إلى ورعه وتقواه في السوق وتيقظه ونجابته وذكائه، وقد لوحظ ذلك عليه مراراً، وبشكل خاص أثناء مجادلته الفرق الأخرى الخارجة عن الدين، ولربما ذاع صيته متكلماً مجادلاً لأصحاب الفرق والأهواء، فأُعجِب الإمام الشعبي به، وعندما مرَّ أبا حنيفة بالشعبي دعاه وسأله: " إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، وسميت له أستاذي فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم فقال لي: لا تفعل

[22] ابن علان البكري الشافعي، محمد علي بن محمد (1057ه): دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2004م، ج5، ص290. الملا القاري، علي بن سلطان محمد، (ت 1014ه): مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر-بيروت، ط1، 2002م، ج8، ص3348.

[23] سير أعلام النبلاء، دار الرسالة: 6/ 395. أبو زهرة : ص20-21.

وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة، قال: فوقع في قلبي من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله"24.

من المناسب هنا ذكر أن أبا حنيفة لم ينقطع عن التجارة بعد سلوكه العلم، وإنما استمر متابعاً أو مشرفاً عليها، وكغيره؛ يبدو أنه كان له شركاء في عمله يسافرون له في تجارته، بيعاً وشراءَ، وهو حال أغلب التجار بهدف اغتنام الوقت لأشياء أخرى، وطبيعة العمل هي التي تقتضي ذلك، ولا بدَّ أن استخدام الشركاء تعزز كثيراً عنده بعد تحوله إلى العلم.

بعد حادثة الشعبي وتحوله بعدها إلى العلم لا بدَّ أنه فكَّر فيمن يصحبه ويأخذ العلم عنه، إذ أن الكوفة كانت آنذاك تعيش تفاعلاً وتخبطاً فكرياً ودينياً كبيراً، ففيها من جميع الفرق والنحل – شيعة، خوارج، معتزلة، تابعون..– وتختلف فيها الآراء والأهواء وتتعدد.25

نشأ أبو حنيفة في ذلك الوسط والمزيج، واحتك بتلك الأحداث والأخبار والأجناس، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام المجادلين، فاتجه بدايةً لعلم أصول الدين ومناقشة أهل الإلحاد والضلال (علم الكلام)، فدخل البصرة أكثر من سبع وعشرين مرة، يناقش تارةً ويجادل ويرد الشبهات عن الشريعة تارة أخرى، فيدفع عنها ما يريد أهل الضلال أن يلصقوه بها، فناقش جهم بن صفوان حتى أسكته، وجادل الملاحدة حتى أقرهم على الشريعة، كما ناظر المعتزلة والخوارج فألزمهم الحجج، وجادل غلاة الشيعة فأقنعهم، واستمر أبو حنيفة بذلك إلى أن أصبح علماً يُشار إليه بالبنان وهو لا يزال بالعشرين من عمره، ويبدو أنه اتخذ حلقة خاصة به في مسجد الكوفة يجلس إليه فيها طلاب هذا النوع من العلوم26، حتى أتته امرأة في مسألة فأرشدها إلى حماد بن أبي سليمان، ويبدو أن حلقته كانت في الجامع نفسه – أي بالقرب من أبو حنيفة– كي تسأله في تلك المسألة، وأوصاها بأن تعود إليه لتخبره بجواب حماد لها على مسألتها، فأعجب أبو حنيفة بعلم حمّاد، وقرر أن يجلس عنده لتعلم الفقه على يديه.[27]

وهنا يرد سؤالاً: هل تلك الحادثة كانت سبباً كافياً لترك أبو حنيفة علم الكلام والتيمم نحو الفقه؟ أم أن هناك أسباب أخرى؟

---

[24] الخيرات الحسان، ص171. سير أعلام النبلاء، دار الرسالة: 6/ 395. الخميس، محمد بن عبد الرحمن: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، دار الصميعي، السعودية، ص 74. المنتدى الإسلامي: مجلة البيان، العدد 171، ص34.

[25] لمزيد من التفاصيل راجع أبو زهرة ، 122-178.

[26] البخاري الحنفي، عبد العزيز بن أحمد بن محمد (ت730هـ): كشف الأسرار شرح أصول البردوي، دار الكتاب الإسلامي ، ج1، ص9. سير أعلام النبلاء: 396/6. الخيرات الحسان، ص71.

[27] تاريخ بغداد وذيوله، 333/13.

في تتبع أخباره وأقواله يرد على لسانه في حق علم الكلام: " فَرَاجَعْت نَفْسِي بَعْدَمَا مَضَى لِي فِيهِ عُمْرٌ وَتَدَبَّرْت فَقُلْت: إنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَرَضِّي اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتَّابِعِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ لَمْ يَكُنْ يَفُوتُهُمْ شَيْءٌ مِمَّا نُدْرِكُهُ نَحْنُ وَكَانُوا عَلَيْهِ أَقْدَرَ وَبِهِ أَعْرَفَ وَأَعْلَمَ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ثُمَّ لَمْ يَتَهَايَئُوا فِيهِ مُتَنَازِعِينَ وَلَا مُجَادِلِينَ وَلَمْ يَخُوضُوا فِيهِ بَلْ أَمْسَكُوا عَنْ ذَلِكَ وَنُهُوا أَشَدَّ النَّهْيِ وَرَأَيْت خَوْضَهُمْ فِي الشَّرَائِعِ وَأَبْوَابِ الْفِقْهِ وَكَلَامَهُمْ فِيهِ، عَلَيْهِ تَجَالَسُوا وَإِلَيْهِ دَعَوْا وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الْكَلَامَ وَالْمُنَازَعَةَ فِيهِ"[28] .

أيضاً شخصية أبي حنيفة القوية التي ربما صقلتها التجارب التجارية التي عاشها في صباه جعلته لا يرضى إلا بما هو أعلى، فهو لا يقبل الاكتفاء أو التخصص بأي علم– لا على التعيين–، وإنما بذل جهده وفكره في انتقاء أو الانتقال للأفضل، فيرد على لسانه أنه عندما أراد الاشتغال بالعلم تصوَّر غايات العلوم وقلبها في ذهنه، ورأى أن الاستمرار في علم الكلام لا يناسبه، وحجته أن صاحب هذا العلم "إذا كَمُلَ واحتيج إليه لا يقدر أن يتكلم جهاراً، ويُرمى بكل سوء"[29]، وقلَّب أبي حنيفة في ذهنه علم الأدب والنحو والقراءات والحديث، وانتهى إلى أن علم الفقه "كلما قلَّبتُهُ وأدرتُه لم يزد إلا حلاوةً، ولم أجد فيه عيباً، ورأيت أمراً لا يستقيم طلب الدنيا والآخرة إلا بمعرفته، فاشتغلت به"[30].

على الرغم من تخصص أبو حنيفة في الفقه فقد كان له باع طويل في بقية العلوم الشرعية كالتفسير والحديث، وكذلك علوم الآلة والعلوم الأدبية، والمقاييس الحُكْميَّة، فكان "بحراً لا يُجارى، وإماماً لا يُبارى".[31]

وفي العودة لعلاقة أبو حنيفة مع شيخه حماد وتطورها يظهر أن الأول قد أُعجب بعلم الثاني فجلس ليتعلم الفقه على يديه، فكان يحفظ جميع ما يقوله حماد، وأصبح من أشد المقربين له، إذ يرد على لسان حمّاد أنه قال: "لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة"[32]. واستمر أبو حنيفة ملازماً شيخه مدة عشرة سنوات حتى نازعته نفسه أن يتفرد عنه وتكون له حلقته الخاصة، فدخل المسجد وهو عازم على ذلك، ولما رأى شيخه حماد لم تطب نفسه أن يعتزله، فجلس إليه، وشاءت الأقدار أن تصل من البصرة

[28] كشف الأسرار، ج1، ص9. أصول الدين، ص160.

[29] المقدسي، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد (ت 643ه): المنتقى من مسموعات مرو، مخطوط ، ق 1307 (ب). كذلك انظر: تاريخ بغداد: 13/332-333.

[30] الخيرات الحسان ص72. كذلك انظر تاريخ بغداد 13/332-333.

[31] الخيرات الحسان: ص72.

[32] تاريخ بغداد وذيوله، 13/333. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: مجلة البحوث الإسلامية ، جزء الأعلام، ص202. القضاعي المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، 1980، ج29/ 426

نعوة قريب لحماد، لا وارث له غيره، فاضطر الأخير للسفر واستخلف أبو حنيفة في حَلْقَته، واستغرق غيابه شهرين تولى خلالها أبو حنيفة الإفتاء، فسُئل عن ستين مسألة جديدة لم تكن مرت عليه من قبل، فأجاب فيها، وعندما عاد شيخه حماد إلى الكوفة سأله عن تلك المسائل، فوافقه في أربعين وخالفه في عشرين منها، فأخذ النعمان على نفسه ألا يفارقه حتى يموت.[33]

يبدو أن أبو حنيفة كان عند تحوله إلى العلم في سن الثانية والعشرون من عمره، إذ يرد في المصادر أن أبو حنيفة صحب حماد ثمان عشرة سنة، وعندما توفي الأخير كان أبو حنيفة قد بلغ الأربعين من عمره، وذلك لا يعني أن أبو حنيفة لم يصحب غيره أو لم يأخذ العلم عن غيره، بل تذكر بعض المصادر أن عدد أشياخه زاد عن أربعة آلاف شيخ، منهم سبعة صحابيون، وثلاث وتسعون من التابعين، والبقية من أتباع التابعين، ويُعزى هذا العدد الكبير من أشياخه للمدة الزمنية الطويلة نوعاً ما التي عاشها أبي حنيفة (سبعون عاماً)، بالإضافة إلى رحلاته العديدة والمتكررة وأهمها إلى مكة والمدينة بقصد الحج والتي بلغت خمساً وخمسين رحلة، ولابدَّ أنه التقى هناك خلال موسم الحج بعدد كبير من العلماء والأشياخ العدّل؛ فأخذ عنهم،[34] ولن يستطرد البحث كثيراً في ذلك كونه دُرس في عدة أماكن ومن قِبل عدة أشخاص.

وعن مكانة شيخه حمّاد بن أبي سليمان آنذاك فقد انتهت إليه رئاسة الكوفة، وعندما توفي لم يكن هناك من هو مؤهلاً لخلافته أكثر من أبي حنيفة، وبعد أخذ ورد اختاره الناس مكان شيخه، "واختلفوا إليه، فوجدوا عنده من العلم الغزير في كلِّ بابٍ، وحسن المواساة والصبر عليهم مالم يجدوه عند غيره، فلزموه وتركوا غيره"[35]

لقد تَبَحَّر أبو حنيفة في العلوم الإسلامية بشكل عام، وغدا له باع طويل فيها، كيف لا؛ وهو المناظر البارع المتعمق في علم الكلام وقد عدل عنه إلى الفقه، فأقام حجته أيما قيام، وأقنع جُلساؤه وطلابه بأفكاره وفتاويه الفقهية، وبرع في ذلك، وزاده فروعاً لم تكن من قبل، فقلده الفقهاء من بعده، وبشكل خاص في موضوع فرض المسائل وتقديرها قبل وقوعها، ومن ثم وضع أحكامها، لِدا يُعد أبو حنيفة هو أول من دوَّن علم الفقه ورتب أبوابه، فانتشر هذا العلم في أقاليم شتى كالهند والسند والروم وسواها. وأصبحت حلقته أعظم حلقة في المسجد، وانصرفت وجوه الناس إليه، وذاع صيته، فأكرمه الأمراء وذكره الخلفاء وكثر حساده ومناوئوه، وذلك مبحث يطول وهو ليس من غايات البحث هنا.

[33] سير أعلام النبلاء: 398/6. الخطيب البغدادي 333/13-334. الخيرات الحسان : ص71-72.

[34] سير أعلام النبلاء: 396/6-398. تهذيب الكمال، 29/ 426.

[35] الخيرات الحسان، ص75.

يفهم من سياق كلام وكيع أثناء حديثه عن أبا حنيفة أن الأخير كان بجانبه كوكبة من الفقهاء والعلماء وأئمة الحديث وأئمة اللغة العربية وأئمة الزهد والورع، وأنه لا يخرج عن رأيهم في المسائل الدينية، أي أنه كان يتناقش معهم في المواضيع ولا يستبد برأيه مع مكانته عندهم وتعظيمهم له، ومن هذا الباب اعترض وكيع على شخصٍ اتهم أبو حنيفة بخطأ معين، محتجاً بهذه الكوكبة من العلماء الذين هم بجانبه قائلاً: "لم يكن ليُخطئ، لأنه إن أخطأ رَدُّوه للحقِّ"[36].

وفي نهاية الحديث عن تحوله إلى العلم لابدّ من الإشارة ولو سراعاَ لمنهج الإمام أبي حنيفة في البحث، فقد ابتكر أبو حنيفة نموذجًا منهجيًّا في تقرير مسائل الاجتهاد، مثّل ديمقراطية الرأي وحرية التفكير، فقد كان يعرض المسألة على تلاميذه العلماء في حلقة الدرس ليدلي كلٌّ بدلوه، ويأتي بما يعزز حجته، ثم يعقِّب هو على آرائهم بما يؤيدها أو يدفعها بالنقل أو الرأي، أو بما عنده من أدلةٍ، ولربما مضت أيام حتى يتم تقرير مسألة ما، وتلك هي الدراسة المنهجية الحرة الشريفة التي يظهر فيها احترام الآراء، ويشتغل فيها عقل الحاضرين من التلامذة، ويتشجعون ويتمرنون على اعمال العقل، كما يظهر علم الأستاذ وفضله، فإذا تقررت مسألة من مسائل الفقه –أو غير الفقه– على تلك الطريقة، كان من العسير نقدها أو نقضها.

قال المُوفَّق المكي: "وضع أبو حنيفة رحمه الله مذهبه شورى بينهم، لم يستبد فيه بنفسه دونهم اجتهادًا منه في الدين، ومبالغة في النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، فكان يلقي مسألة مسألة، يقلِّبها ويسمع ما عندهم ويقول ما عنده، وربما ناظرهم شهراً أو أكثر من ذلك، حتى يستقر أحد الأقوال فيها، ثم يثبتها القاضي أبو يوسف[37] في الأصول، حتى أثبت الأصول كلها. وإذا أُشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنب أذنبته، ويستغفر، وربما قام وصلَّى، فتتكشف له المسألة، ويقول: رجوتُ أنه تيب عليَّ"[38].

---

[36] الخيرات الحسان: ص81.

[37] هو يعقوب بن إبراهيم بن حَبيب بن خُنيس بن الصحابي الأنصاري سعد بن حَبْتَة، وأبو يوسف فقهاً عالماً حافظاً، جالس أبو حنيفة، تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء (المهدي والهادي والرشيد)، توفي سنة 182هـ ابن عبد البر القرطبي، يوسف بن عبد الله، (ت 463ه): الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، دار الكتب العلمية- بيروت، ص172-173.

[38] على جمعة محمد عبد الوهاب : المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، دار السلام – القاهرة، ط الثانية - 1422 هـ - 2001 م، ص90-91. كذلك انظر الصيمري الحنفي، الحسين بن علي: أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، عالم الكتب- بيروت، ط2، 1985، ص156

الفكر التجاري عند أبو حنيفة

(حرص وورع)

لسنا أمام تاجر عادي بسيط، ينهم ويأكل ويأخذ ويجمع ويَكنز، وإنما أمام شخصية تجارية علمية دينية ليست كغيرها من التجار. لقد امتهن العلم والتجارة معاً، فرأى الحياة من جميع جوانبها ونظر إلى الأمور بمصداقية وحيادية كبرى.

غشي أبو حنيفة الأسواق وعرفها وهضمها وبلغ فيها مبلغاً، وغدا يُشار إليه بالبنان، وعندما دخل في ميدان العلم اضطرب وقته وضاق، فنظمه ورتبه وقسَّمه بين عدة حاجيات جديدة ظهرت في حياته كان لا بدَّ من القيام بها، وكانت قسمة عادلة بين التجارة والفقه والعبادة والأهل.

في الليل أصبح مجتهداً في العبادة، وفي صحوة النهار استمر تاجراً يتولى العقود كاسباً رابحاً، وتلك بركة التجارة التي حث عليها رسول الله ﷺ وقال فيها: " يا معشرَ قريشٍ، لا يَغلبنَّكم المَوالي على التجارةِ، فإنَّ البركةَ في التجارةِ، فصاحبُها لا يَفتقرُ، إلا تاجر حلاف مهين [39].

ثم إذا صلى أبو حنيفة الظهر عكف على العلم دارساً ومذاكراً ومفرعاً الفروع أو مؤصلاً الأصول، مستخدماً خبرته التجارية المتراكمة والمتوارثة التي تمرّس عليها، إذ أنه تمرَّس على التجارة وعرف عرفها واستبان معاملاتها بين الناس، واتضحت له، فواءم بينها وبين نصوص الشريعة من قرآن وسنة، فأتى فكره وفقهه كاملاً في مواضيع البيوع والشراء.[40]

في تعاملاته التجارية وقف عند حدود الله وابتعد كثيراً عن الشُبهات، وحاكم نفسه كثيراً في مواضيع الحلال والحرام، المحظور والمباح، وتشدد وتحرَّج في كل ما تخالطه شبهة الإثم في معاملاته التجارية، وإن

---

[39] ابن الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد البصري الصوفي: معجم ابن الأعرابي، تح: عبد المحسن الحسيني، دار ابن الجوزي- السعودية، ط1، 1997، ج 2، ص636. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم (427هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، راجعه: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002، ج2، ص267. جرَّار، نبيل سعد الدين سليم: الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء، أضواء السلف، ط1، 2007م، ج3، ص455. كذلك انظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: جامع الأحاديث، تح: علي جمعة، .ابن شبة، عمر بن زيد بن عبيدة النميري البصري (ت262هـ): تاريخ المدينة لابن شبة، تح: فهيم محمد شلتوت، جدة، 1399هـ، ج2، ص746.

[40] أبو زهرة، ص405.

ظن إثماً أو توهمه في مال خرج منه وتصدّق به على الفقراء والمحتاجين. إذ يرد في المصادر أنه بعث شريكه حفص بن عبد الرحمن في تجارة أمتعة، وأعلمه أن بها ثوباً فيه عيباً وأوصاه بتبيان ذلك العيب للمشتري، وعندما باعه حفص نسي الوصية ولم يُبين العيب، وعندما عاد وعلم أبو حنيفة بذلك ولم يتمكن من الوصول للمشتري ما كان منه إلا أن تصدَّق بثمن المتاع كله، وكان ثلاثين ألف درهم.[41]

لم يقف عند ذلك، وإنما كان حريصاً أشد الحرص في الابتعاد عن الشبهات في المعاملات التجارية، وعدم الخوض في الأيمان والحلفان على الله في مواضيع التجارة وعرض الدنيا ومتاعها، فذلك برأيه لا يستحق، وبهذا الصدد "جعل على نفسه إن حلف بالله صادقاً في عرض كلام تَصدَّق بدرهم، ومن ثم شدد على نفسه بأن جعل على نفسه كفارة اليمين الصادق ديناراً ولم يكتف بالدرهم"[42].

في هذا الموضع نتذكر المعاملات التجارية في عصرنا الحاضر وما يتخللها من حلفان للأيمان الكاذبة المغلظة التي يقع بها بعض التجار ؛ ولا أُعمم، ورأيت بعضها بعيني وسمعتها بأذني، وهنا دعوة لهم للابتعاد عن تلك الأيمان ؛ وإن كانت صادقة، أي تنزيه الله عن عمليات البيع والشراء.

تمثَّل أبو حنيفة أخلاق التاجر الصادق، فتميّز عن التجار في تعامله التجاري وبالأخص مع الفقراء، وضرب شوطاً كبيراً في الأمانة والصدق والابتعاد عن الغبن، فقد "جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له، فقال كم ثمنه؟ فقالت: مائة. فقال: هو خير من مائة. بكم تقولين؟ فزادت مائة، مائة، حتى قالت أربعمائة، فقال هو خير من ذلك، قالت: تهزأ بي؟ قال هاتي رجلاً يقومه، فجاءت برجل، فاشتراه بخمسمائة".[43]

أوجه إنفاق أرباح التجارة في فكر أبي حنيفة

لا يرد في المصادر المعاصرة لأبي حنيفة أو المتأخرة عنه ما يُشكك بنزاهته وورعه في كسب المال الحلال، فقد كان حريصاً قدر المستطاع على الكسب الحلال، مبتعداً كل الابتعاد عن الشبهات، ومع ذلك لا بدَّ أن التجارة ذرّت عليه أرباحاً وفيرة، وكغيره من التجار انساقت إليه الأموال الكثيرة، ولكن يخالف غيره

[41] تاريخ بغداد، 13/ 356.

[42] الخيرات الحسان، ص105.

[43] أبو زهرة: ص33.

من التجار بأنه لم يكتنز المال ولم يُكوّن امبراطورية مالية كبيرة، إذ يَرد في المصادر على لسانه أنه قال: " مَا ملكت أَكثر من أَرْبَعَة آلَاف مُنْذُ أَكثر من أَرْبَعِينَ سنة إِلَّا أخرجتها، وَأَن امسكتها لقَوْل عَليّ رَضِي الله عَنهُ أَرْبَعَة آلَاف دِرْهَم وَمَا دونهَا نَفَقَة، وَلَوْلَا إِنِّي أَخَاف أَن التجئ إِلَى هَؤُلَاءِ مَا امسكت درهما وَاحِدًا"[44].

ويظهر بكل وضوح أن المال كان بين يديه وسيلة لا غاية بحد ذاته، ومن خلال البحث في أخباره وسيرته يظهر أنه كان لديه أوجه كبيرة وكثيرة للنفقات، نأتي على بعضها:

أولها كانت على نفسه، بنسبة مقبولة معتدلة مشروعة، فظهرت نعمة الله عليه واضحة جلية، ومن المناسب هنا ايراد حديث رسول الله ﷺ: " إذا أنعم الله عَلَى عبد نعْمَة أحب أَن ترَى نعْمَته عَلَيْهِ"[45]، وهو أيضاً –أبو حنيفة– ذكَّر بهذا الحديث أحد جُلسائه من الأغنياء عندما رآه بثياب رثة، وزاد على الحديث بأن قال له: "فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتمّ بك صديقك"[46].

ومناسباً هنا وصف حال أبو حنيفة على لسان حفيده عمر بن حمّاد: "كان حَسَن الهيئة، كثير التعطر، يُعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله قبل أن تراه"[47]. وأورد عنه صاحب الخيرات الحسان بأنه "كان يتعهد شسعه، حتى إنه لم يُرَ مرةً منقطع الشسع"[48]. ويُورد النَّضرُ بن محمد حادثة بينه وبين أبو حنيفة "قال لي أبو حنيفة مرّة وقد أراد الركوب: أعطني كِساءك وخذ كسائي، ففعلتُ، فلما رجع قال لي: أخجلتني بغلظ كسائك، وكان بخمسة دنانير، ورأيتُ عليه كِساءً قوّمته بثلاثين ديناراً"[49].

---

[44] القرشي الحنفي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله (ت775هـ): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه- كراتشي، ج1، ص496. الصيمري: أخبار أبو حنيفة، ص61.

[45] ابن حِبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ (ت 354هـ): الثقات، تح: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ط1، 1973م، ج3، ص376. الزمخشري، محمود بن عمرو، (ت 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي- بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص510.

[46] ابن حمدون البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد (562هـ): التذكرة الحمدونية، دار صادر-بيروت، ط1، 1417هـ، ج2، ص223. والصَّيمري: أخبار أبي حنيفة، ص58.

[47] تاريخ بغداد، 13/ 331. النووي، محي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ): تهذيب الأسماء واللغات، تح: شركة العلماء، دار الكتب العلمية -بيروت، ج2، ص218.

[48] الشسعُ: هو ما يُربط به النعل من الأمام ليستمسك على القدم. الخيرات الحسان : ص138.

[49] الخيرات الحسان، ص138.

فيما تقدم دلالة وإشارة إلى أن أبا حنيفة لم ينسَ حظه من الدنيا، فعلم نِعم الله عليه وأظهرها على نفسه وأحسن استخدامها وتدبيرها متنعماً بنعم الله بتوسط يرضي الله.

وثاني وجه لإنفاق أرباح التجارة والأموال التي لابدَّ أنها أتته طائعة بسبب التجارة؛ كثرة **البر والصدقة** لجميع من حوله ومن يحتاج لها، فتورد المصادر أنه كان " يَجمعُ الأَرباحَ عندَهُ مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ، فَيَشْتَرِي بِهَا حَوَائِجَ الأَشْيَاخِ الْمُحَدِّثِينَ، وَأَقْوَاتَهُمْ، وَكُسْوَتَهُمْ، وَجَمِيعَ حَوَائِجِهِمْ، ثُمَّ يُعْطِيهِمْ، وَيَقُول: لا تَحْمَدُوا إلا اللَّهَ، فَإِنِّي مَا أَعْطَيْتُكُم مِن مَالي شَيْئًا، ولكن من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ فِيكُم"[50]، وهنا تتضح وبكل جلاء نظرته ورأيه في أموال وأرباح التجارة وكيفية انفاقها بما يرضي الله ويحقق التكافل الاجتماعي، وعدم اكتنازها للحاجات الشخصية، وذلك يجعل هذه الأموال بين الأيادي مطروحة للاستثمار والنمو، وتلك نظرة إيجابية متقدمة على عصره.

وأيضاً يرد على لسان سهلُ بن مزاحم في حق أبي حنيفة فيقول: "كنا ندخل عليه فلا نرى في بيته إلا البواري"[51]، هذا دليلٌ واضح على حياة التوسط التي عاشها أبو حنيفة بعيداً عن البذخ والسرف مع غناه.

وفي انفاقه على الفقراء والأرامل كان له وجهة نظر وطريقة عجيبة تَرفَّع بها عن الأهواء الشخصية وحب الظهور والبروز، فقد كان حريصاً أشد الحرص على حفظ ماء وجه الفقير والحفاظ على كرامته وعدم اهانته واخطاره بأنه مَدين لأبي حنيفة، وبهذا الصدد يرد في المصادر عدة حوادث تشير إلى ذلك، منها أن امرأة عجوز أتت أبو حنيفة: "تطلب منه ثوب خز فأخرج لها ثوبا قالت إني امرأة ضعيفة وأَنها أمانة فبعني هذا الثوب بما تقوم عليك فقال خذيه بأربعة دراهم، قالت لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة، قال إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم وبقي هذا يقوم علي بأربعة دراهم"[52]. وأيضاً جاءه صديق يطلب منه ثوب خُز على وصف معين، فقال له: "اصبر حَتَّى يقع وآخذه لك إن شاء الله. قَالَ: فما دارت الجُمُعة حَتَّى وقع، فمر بِهِ الرجل فَقَالَ لَهُ أَبُو حنيفة قد وقعت حاجتك، قَالَ: فأخرج إِلَيْهِ الثوب فأعجبه فَقَالَ: يا أَبَا حنيفة كم أزن للغلام؟ قَالَ: درهما، قَالَ يا أَبَا حنيفة ما كُنْت أظنك تهزأ؟ قَالَ: ما هزأت إني اشتريت

---

[50] الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت 748ه): مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، تح: محمد الكوثري، وأبو الوفاء الأفغاني، لجنة احياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند، ط3، 1408ه، ص46.
النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج2، ص221.

[51] الخيرات الحسان، ص105.
البواري جمع بوري، وهو الحصير المنسوج.

[52] أخبار أبي حنيفة، ص50-51. تاريخ بغداد، 13/ 359.

ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم، وإني بعت أحدهما بعشرين ديناراً وبقي هَذَا بدرهم وما كنت لأربح عَلَى صديق"[53].

وعن القيس بن الربيع أنه "كان كثير الصلة والبر لكل من لجأ إليه، كثير الإفضال على إخوانه"[54].

أيضاً يوجد عدة حوادث أنفق بها أبو حنيفة الأموال الكثيرة سواءً على زواج من احتاج أو من كانت ثيابه رثة كي يَتَجَمَّل ببعض المال، لدرجة قال فيه البعض أنه: "كان لا يكادُ يُسأل حاجة إلا قضاها"[55].

وثالث وجه لإنفاق الأرباح عند أبي حنيفة كانت **في سبيل العلم والتعليم**، وبذلك ترك لنا درساً ومَثلاً كبيراً وضرب شوطاً بعيداً في الإنفاق، فكما تقدم أنه أنفق الكثير من الأموال على حاجات العلماء والفقهاء والمحدثين، وتعهد أقواتهم وكسوتهم، كما ظهر أنه مستعد لإنفاق جميع ماله على العلم وتعليم ابنه حمّاد، فيرد في المصادر أنه عندما خَتم ولده حماد سورة الفاتحة أعطى المعلم خمسَ مئةِ درهم، وفي رواية ألف درهم. فقال المعلم: ماذا صنعتُ حتى أرسل إليَّ هذا!؟ فأحضره واعتذر إليه، وقال: لا تستحقر ما علمت ولدي، والله، لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك، تعظيماً للقرآن"[56].

يؤكد عدد من العلماء على اكرام أبي حنيفة للعلم والعلماء، فيذكر الفُضَيل: "كان أبو حنيفة معروفاً بكثرة الأفضال، وقِلّة الكلام، وإكرام العلم وأهله"[57].

ونخلص من هذه الفقرة والسلوك الجميل لأبو حنيفة إلى تخيُّل لطيف وجميل وهو أنه لو كان أبا حنيفة مَثَلُنا في العلم والتعليم لوصلت البلاد العربية والإسلامية درجة من التطور والرقي لم يصلها أحد، إلا أننا انسقنا وراء شهوات الدنيا وملذاتها، زاهدين بالعلم وأهله، مما أدى إلى تراجع البلاد العربية (علمياً؛ وربما أخلاقياً).

---

[53] تاريخ بغداد، 13/359-360.

[54] تاريخ بغداد، 13/358.

[55] تهذيب الأسماء واللغات، 2/222. أخبار أبي حنيفة وأصحابه، 1/52.

[56] الخيرات الحسان، ص 101. كذلك انظر: أبو القاسم الهُذلي، يوسف بن علي بن جبارة المغربي (465هـ): الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، تح: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1، 2007م، ص79.

[57] أخبار أبو حنيفة وأصحابه، ص61.

ورابع وجه لإنفاق الأرباح كانت لحل المشكلات وإطلاق سراح المسجونين، "فحين حُبس إبراهيم بن عُيينة على أكثر من أربعة آلاف درهم؛ فأراد بعض اخوانه أن يجمع له من الناس، فلمَّا صار الخبر لأبي حنيفة أمَرَهُ بردِّ ما أخذه من الناس، وقضى عنه جميع دَيْنه"[58].

تلك أوجه أربعة لإنفاق المال عند أبي حنيفة سردها البحث سراعاً، ولا بدَّ أنه كان لديه أوجه أخرى كثيرة أنفق ماله بها، وعلى العموم اتصف أبو حنيفة بالعطاء والسخاء واتضح ذلك جلياً في الأعمال الخيرية، وزاد بأن ألبس العطاء ثوباً جديداً هو ثوب البيع والشراء، فسمى بأخلاقه وبمهنة التجارة إلى العلاء، وألبس التجارة حلة الصفاء والاخاء، وكأن حاله يقول للفقراء: نحن في المال والربح قُسماء. ولا يخفى على أحد ما لهذه السياسة من دور وفضل في بناء مجتمع مترابط متماسك مُتحابب، تختفي منه الأمراض الاجتماعية وتتعافى المجتمعات، فتنمو وتزدهر.

ومناسب هنا ذكر الحال المضاد لحال أبي حنيفة وهو حال الغني الذي يتظاهر بأنه أشعث أغبر، تجوز عليه الصدقة، وفي الأصل هو يكتنز الأموال، ولا أراه إلا حارساً أميناً عليها حتى يرثها غيره من بعده، وعلى العموم له الشكر على ذلك، إلا أنه حرم نفسه خيراً كثيراً.

تجارته وتقواه أبعداه عن التزلف للسياسة:

العلاقة وثيقة بين التجارة والسياسة في الحياة العملية، وكلاهما مرتبط بالآخر ومؤثر به، فغالباً ما تزلّف التجار إلى الساسة كي يحفظوا مصالحهم، أو ربما كي يحتكروا بعض التجارات، وأضعف الإيمان كي يأمنوا بطش الدولة الناتج عن طمعها وحاجتها لثرواتهم، إلا أن أبا حنيفة كان من الطبقة الأخرى التي أغناها الله عمن سواه، فضرب بالسياسة عرض الحائط وابتعد أيما ابتعاد عن أصحابها وولاة أمورها آنذاك، فقد نشأ في أسرة غنية أغنته وأبعدته عن ذل الحاجة، فعاش عزيزاً وسيداً لنفسه، لا يجاري أحداً.

أبو حنيفة بطبيعة عمله في التجارة لا بدّ أنه كسب مالاً وفيراً، فأصبح بغنى عن أصحاب السلطة والجاه، فلم يقبل منهم أي منحة أو هدية أو أعطية، وذلك خشية منه أن يصبح لهم حظوة عنده، فيحرجوه ويُدخلوا عليه في دينه ما يكره، وفي ذلك تورد الكتب والمصادر عدة روايات، منها:

ما ذكره الحسن بن زياد اللؤلئي في معرض حديثه عن علاقة أبو حنيفة بأمراء عصره: "والله ما قبل أبو حنيفة لأحدٍ منهم جائزة، ولا هدية"[59].

[58] الخيرات الحسان، ص103.

[59] مناقب الإمام، ص42. الخيرات الحسان ص136.

أيضاً يرد في المصادر أنه عندما كان في احدى زياراته لبغداد وصله الخليفة المنصور بثلاثين ألف درهم، فقال له: "يا أمير المؤمنين إنني ببغداد غريب وليس لها عندي موضع، فاجعلها في بيت المال، فأجابه المنصور إلى ذلك"[60]، ودون شك أنه كان أسلوب تهرب مهذب من أبو حنيفة لرفض هدية الخليفة المنصور، إذ أن أبو حنيفة لا يمكنه رفض هدية سيد البلاد آنذاك بشكل مباشر، إذ من شأنه أن يجلب عليه النقمة والغضب من الخليفة والحاشية.

وفي تبرير موقف أبو حنيفة الرافض للهدية، يمكن القول أنه كان غني مستعفف في ذاته، يأكل من كسب يده في التجارة، فكان في غنى مادي عن غيره، لا يحتاج لأحد، وإذا قبلها من المنصور ربما تكون من الشبهات، أو ربما يستخدمها المنصور كي يستميل بها أبو حنيفة إلى جانبه فيفتي له بما يناسبه أو بما هو أقرب لقلبه، ويعزز ذلك الرأي ما حصل في حادثة أخرى مشابهة، عندما عرض المنصور عشرة آلاف درهم على أبي حنيفة، تردد، وأسرَّ شاكياً لأحد جلسائه: "هذا رجل إن رددتها عليه غضب، وإن قبضتها دخل عَليَّ في ديني ما أكره"، ومن جديد رفض الهدية بأسلوب لبق جميل.[61]

وعندما حكم في خصام بين الخليفة المنصور وزوجته، وكان الحكم لصالح الأخيرة، أرادت أن تمنحه هديةٍ سَنِيَّة، فردها عليها قائلاً: "إنما ناضلت عن دين الله، لا تقرباً لأحدٍ، ولا طلباً لدنيا"[62].

وفي حادثة أخرى قال له المنصور: "لِمَ لَمْ تَغْشَنَا؟ قال له: لأنه ليس عندي ما أخافك عليه، وإن قربتني فتنتني، وإن أقصيتني أحزنتني"[63].

من هنا يُفهم عزوفه عن الدنيا واستغناؤه بنفسه عمن سواه، وزهده بما لدى الآخرين من متاع، ولا شك أن ما عادت به التجارة عليه من خيرات جعلته في غنىً عن هذا وذاك.

ومن هنا نستنتج أن أبا حنيفة كان حراً في عمله وتصرفه وفتاويه وفقهه، لم يجارِ ولم يصانع أحداً، ومن هنا نفهم أنه كان على علاقات غير حسنة مع حكام عصره، ولا بدَّ أنه أظهر آراؤه في الإمامة والرياسة،

[60] تاريخ بغداد: 357/13.

[61] تاريخ بغداد: 13/ 357-358.

[62] الخيرات الحسان، ص137.

[63] الخيرات الحسان: ص141.

وتلك قضية خلافية كبرى كانت رائجة آنذاك، وربما صرَّح عن بعض آرائه في ذلك في حلقات العلم التي كان يعقدها، إذ يُروى عن صاحبه زُفَرَ[64] أنه قال له: " والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في أعناقنا"[65].

مكانته العلمية في عصره:

لن يطيل البحث في هذا العنوان ولن يدخل في تفاصيله الكثيرة، فأبو حنيفة أنتج علماً وفقهاً غزيراً، دُرِس في مواضع عدة، ويحتاج لمؤلفات وأبحاث عدة، لدى اقتصر البحث هنا على إعطاء لمحة مختصرة جداً عن مكانته العلمية في عصره.

يجمع العلماء والأدباء والأشياخ وساسة عصره أنه أفقه الناس والعلماء، وأنه ساد أهل زمانه بلا مدافعة في علوم شتى، وأورد الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد فصلاً كاملاً عن فقهه واعتراف العلماء به وثناؤهم عليه،[66] وكذلك فعل ابن حجر الشافعي في كتابه الخيرات الحسان.[67]

وعن ابن المبارك قال: "ما رأيت رجلا أوقَرَ في مجلسه ولا أحسن سَمتاً وحِلماً من أبي حنيفة"[68].

وعن أبي معاوية الضرير قال: "حب أبي حنيفة من السنة"[69].

وقال يحيى بن سعيد القطان: "لا نكذب الله ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة وقد أخذنا بأكثر أقواله"[70].

وقال علي بن عاصم: "لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم"[71].

---

[64] هو زُفَرَ بن الهُذَيل العَنْبَري التَّمِيمي، من كبار أصحاب أبي حنيفة، تولى قضاء البصرة، ثم خلف أبو حنيفة في حلقته إلى أن توفي سنة 158هـ ابن عبد البر: الانتقاء، ص173-174.

[65] ابن عبد البر: الانتقاء، ص170. تاريخ بغداد، 13/ 330.

[66] تاريخ بغداد، 13/ 338- 351.

[67] ص 82-90.

[68] تاريخ الإسلام: 9/ 308. ابن تغري بردي، يوسف، (874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دار الكتب- مصر، ج2، ص13.

[69] سير أعلام النبلاء: 401/6. تاريخ الإسلام، 310/9.

[70] أبو الحسنات اللكنوي، محمد عبد الحي بن محمد الأنصاري الهندي، (ت 1304هـ): التعليق الممجد على موطأ محمد، تح: تقي الدين الندوي، دار القلم – دمشق، ط4، 2005م، ج1/ص20. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (774هـ): البداية والنهاية، تح: علي شيري، دار احياء التراث، ط1، 1988م، ج10، ص 114. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 433/29.

[71] سير أعلام النبلاء، 403/6.

وقال حفص بن غياث: "كلام أبي حنيفة في الفقه أدقُ من الشَّعرِ، لا يَعيبه إلا جاهل"[72].

وقال الشافعي: "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"[73].

وقال الذهبي في حقه: "الإمامة في الفقه ودقائقه مُسَلَّمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه، وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل وسيرته تَحْتَمل أن تفرد في مجلدين رضي الله عنه ورحمه"[74].

ووصفه سفيان الثوري بأنه "أفقه أهل الأرض آنذاك"[75].

وقيل للإمام مالك: "هل رأيت أبا حنيفة؟ قال نعم. رأيت رجلاً لو كَلَّمك في هذه السارِية أن يجعلها ذهباً لقام بِحُجَّته"[76].

كلها دائل على حكمته وعلمه ورجاحة عقله والمكانة الكبيرة التي حظي بها عند العامة والخاصة، فتميز وتفرَّد عن أهل عصره لدرجة قال فيها ابن شُبْرُمة عنه: "عجزت النساءُ أن تلد مثل النُّعمان"[77].

وعن أشياخه الذين أخذ عنهم فهم كُثر، لا يتسع البحث لهم، وقد يزيد عددهم عن أربعة آلاف شيخ[78].

أما الآخذين عنه –طلابه– فهم أكثر من ذلك بكثير ولا يمكن حصر عددهم، إذ قال عنه بعض أئمة عصره: "لم يظهر لأحدٍ من أئمة الإسلام المشهورين مثلُ ما ظهر لأبي حنيفة من الأصحاب والتلاميذ، ولم ينتفع العلماء وجميعُ الناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه في تفسير الأحاديث المُشتبهة، والمسائل المستنبطة، والنوازل، والقضاء، والأحكام"[79].

من خلاصة ما تقدم نستنتج أن أبو حنيفة استحق لقب فقيه العراق بجدارة كما نعتته به بعض المصادر المعاصرة له، واكتسب سمعة ومكانة كبيرة في عصره، وربما زاد في هذه المكانة ارتياده الأسواق ومعرفته بأحوال البيوع والشراء، فَتَصَدَّر لمعاملات الناس وأحكامها.

---

[72] تاريخ الإسلام، 312/9. سير أعمال النبلاء، 403/6.

[73] تاريخ بغداد: 13/ 345. النجوم الزاهرة، 13/2.

[74] سير أعلام النبلاء، 403/6.

[75] تاريخ بغداد : 344/13.

[76] ابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص131. ابن خلكان، ج5، ص409.

[77] ابن عبد البر: الإنتقاء، ص131 وص161.

[78] الخيرات الحسان، ص69.

[79] الخيرات الحسان، ص 70. ابن عابدين الدمشقي، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، (1252هـ): رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، دار الفكر- بيروت، ط2، 1992م، ج1، ص56.

خاتمـــــــــة:

خَبِر أبو حنيفة الأسواق وأحوال البيوع والشراء والعرف التجاري فتصدَّر للكلام في معاملات الناس وأحكامها كلام الخبير الفاهم، وضبط تلك العمليات بشكل دقيق، وتطوَّر مذهبه واستمر على هذا المنوال حتى الوقت الراهن، والدليل على ذلك أن معظم قضايا الخلاف التجاري والمالي تَحْتَكِم وتُحل على المذهب الحنفي لأنه الأسهل والأيسر على الناس في موضوع المعاملات، وذلك بإجماع الفقهاء المتأخرين، وهنا ربما نُفسر سبب انتشار هذا المذهب في المدن دون الأرياف، وذلك لِما اشتهرت به المدن من العمل التجاري فاعتمدت المذهب الأيسر لمعاملاتها التجارية.

من خلال دراسة الفكر التجاري عند أبي حنيفة وأوجه إنفاق الأرباح التي اتبعها يتضح جلياً العطاء والسخاء في معاملاته، والأخلاق السامية التي ظهرت عليه واضحة في علاقاته ومعاملاته وتجاربه، ولا بدَّ أن عمله في التجارة كان له دور في ذلك، فتلك المهنة صقلت شخصيته وجعلتها أقرب إلى الواقع في أفكاره وأعماله كون التجارة تقتضي تلك الحكمة والتعقل، فأتت بآثارها على فقهه ومذهبه، وعزز في خبرته وحنكته ما كان قد تعلمه في صباه من علم الكلام والجدل.

هنا دعوة للتجار في العصر الحاضر للاقتداء بأبي حنيفة في تجارته وعطائه وسخائه وانفاقه للمال على أعمال البر والإحسان، وتنزيه اسم الله في أعمالهم التجارية، وإكساء الأعمال الخيرية الثوب التي أكساها إياه أبو حنيفة –ثوب البيع والشراء–، وعدم جعل المال غاية يتسارعون في الوصول إليها، بل وسيلة للوصول بها إلى بر الأمان، ولا مانع من شراء قلوب ومحبة الناس بها – وبذلك لنا بمعاوية بن أبي سفيان أسوة حسنة –، فنصل إلى مجتمع مترابط متماسك مُتحابب، خالياً من الأمراض الاجتماعية، نامياً مزدهراً.

ومن الاقتراحات التي يقدمها البحث هو إعادة النظر والبحث من جديد في آراء وأفكار أبو حنيفة الاقتصادية والتجارية كونه مارس مهنة التجارة، ومن ثم سلك طريق العلم مع احتفاظه بالعمل التجاري، فلا بدَّ أنه اكتسب خبرة شرعية كبيرة في هذا المجال، وبشكل خاص في البيوع والشراء، وهنا أيضاً دعوة لعلماء الاقتصاد الإسلامي لمزيد من التبحُّر والنظر في كتب وآراء أبو حنيفة الفقهية الاقتصادية، وذلك بهدف حفظ ونماء المال، ومن هنا تأتي فكرة جمع كل ما ثبت عن الإمام أبي حنيفة في معاملاته التجارية وآرائه الفقهية في هذا الباب في كتاب واحد مستقل متفرد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الأزدي السلماسي، يحيى بن إبراهيم: منازل الأئمة الأربعة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 2002م.
3. ابن الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد البصري الصوفي: معجم ابن الأعرابي، تح: عبد المحسن الحسيني، دار ابن الجوزي– السعودية، ط1، 1997.
4. البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي: الجامع المسند الصحيح= صحيح البخاري، باب ما يكره في التناجش، حديث رقم 2142، تح: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ،
5. البخاري الحنفي، عبد العزيز بن أحمد بن محمد (ت730هـ): كشف الأسرار شرح أصول البردوي، دار الكتاب الإسلامي.
6. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.
7. ابن تغري بردي، يوسف، (874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي– دار الكتب– مصر .
8. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم (427هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، راجعه: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002.
9. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية –بيروت، ط1، 1992م.
10. ابن حِبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان الدارمي البُستسي (ت 354هـ): الثقات، تح: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ط1، 1973م.
11. ابن حِبّان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، الدارمي البُستسي (ت 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب ابن بلبان الفارسي، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1988م.
12. ابن حَجَر الهيتمي الشافعي، أحمد بن محمد، (ت 974هـ): الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تح: عبد الكريم المحيميد، دار الهدى والرشاد، دمشق، 2007م ط1.
13. أبو الحسنات اللكنوي، محمد عبد الحي بن محمد الأنصاري الهندي، (ت 1304هـ): التعليق الممجد على موطأ محمد، تح: تقي الدين الندوي، دار القلم – دمشق، ط4، 2005م.

14. ابن حمدون البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد (562هـ): التذكرة الحمدونية، دار صادر –بيروت، ط1، 1417هـ.
15. ابن خلكان الإربلي، شمس الدين أحمد بن محمد (681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر– بيروت.
16. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد وذيوله، الطبعة العلمية
17. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الرسالة، بيروت، 1965
18. الدَّارقطنِي: علي بن عمر بن أحمد البغدادي (ت 385هـ): سنن الدارقطني، تح: شعيب الأرنؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط1، 2004م.
19. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت 748هـ): مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، تح: محمد الكوثري، وأبو الوفاء الأفغاني، لجنة احياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند، ط3، 1408هـ.
20. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز، (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م.
21. الزمخشري، محمود بن عمرو، (ت 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي– بيروت، ط3، 1407هـ.
22. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: جامع الأحاديث، تح: علي جمعة
23. ابن شبة، عمر بن زيد بن عبيدة النميري البصري (ت262هـ): تاريخ المدينة لابن شبة، تح: فهيم محمد شلتوت، جدة، 1399هـ.
24. الصيمري الحنفي، الحسين بن علي: أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب– بيروت، ط2، 1985.
25. الطبري، محمد بن جرير، (310هـ): تاريخ الطبري، دار التراث– بيروت، ط2، 1387هـ.
26. القرشي الحنفي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله (ت775هـ): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه– كراتشي، ج1، ص496.
27. القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد (671هـ): الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية– القاهرة، ط2، 1964م.
28. القضاعي المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط1، 1980.

29. ابن عابدين الدمشقي، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، (1252هـ): رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، دار الفكر- بيروت، ط2، 1992م.
30. ابن عبد البر القرطبي، يوسف بن عبد الله، (ت 463هـ): الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، دار الكتب العلمية- بيروت.
31. ابن علان البكري الشافعي، محمد علي بن محمد (1057هـ): دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2004م.
32. أبو القاسم الهُذلي، يوسف بن علي بن جبارة المغربي (465هـ): الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، تح: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1، 2007م.
33. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (774هـ): البداية والنهاية، تح: علي شيري، دار احياء التراث، ط1، 1988م.
34. مسلم بن الحجاج، (ت261هـ): صحيح مسلم
35. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، دار إحياء الكتب العربية.
36. المقدسي، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد (ت 643هـ): المنتقى من مسموعات مرو، مخطوط، ق 1307 (ب).
37. الملا القاري، علي بن سلطان محمد، (ت 1014هـ): مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر -بيروت، ط1، 2002م.
38. النووي، محي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ): تهذيب الأسماء واللغات، تح: شركة العلماء، دار الكتب العلمية -بيروت.
39. النووي، محي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ): روضة الطالبين وعمدة المفتين، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت -دمشق -عمان، ط3، 1991م.
40. أبو الوليد الباجي القرطبي الأندلسي، سليمان بن خلف (474هـ): المنقى شرح الموطأ، مطبعة السعادة- مصر، ط1، 1332هـ.

المراجع

41. أبو زهرة، محمد: أبو حنيفة (حياته وعصره وآراؤه وفقهه)، دار الفكر العربي
42. جرَّار، نبيل سعد الدين سليم: الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء، أضواء السلف، ط1، 2007م،
43. الخميس، محمد بن عبد الرحمن: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، دار الصميعي، السعودية.

44. الخيون، رشيد: المذاهب والأديان.
45. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: مجلة البحوث الإسلامية، جزء الأعلام+ جزء الأمكنة.
46. الصلَّابي، علي محمد محمد: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، مكتبة الصحابة– الشارقة، 2004م.
47. الصلابي، علي محمد: معاوية بن أبي سفيان، دارالأندلس الجديدة، مصر، ط1، 1429هـ/2008م،
48. العباسي، أحمد: الإمام الأعظم، بغداد، 1956.
49. على جمعة محمد عبد الوهاب: المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، دار السلام – القاهرة، ط الثانية – 1422 هـ – 2001 م.
50. معروف، ناجي: عروبة أبو حنيفة، مجلة كلية الآداب – القاهرة، 16 مايو 1977.
51. معروف، ناجي: عروبة أبو حنيفة، مطبعة العاني، العراق، ط1، 1935م.
52. المنتدى الإسلامي: مجلة البيان، العدد 171.